قصة ياسمين

بقلم فازك الملائكة

(تحية ومحبة للصغيرة الغالية « نسرين »)

عندما غادرت العراق الى اميركا للدراسة منذ خمس سنين كانت قد ولدت لنا في المنزل اخت جديدة اقترحاخي اياد ، الذي كان يبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة ، ان نسميها « ياسمين » تكريما لشجيرة زرعها في حديقتنا ، ومن غير أياد يزرع اي شيء في بيتنا ؟ ان الحديقة معبده . وكان ابي يحب ان يسمي الطفلة سعاد لتكون اسماؤنا علىالتوالي وداد وأياد وسعاد وبذلك يرضي نزعة السجع التي تشيع في بعض الاسر العراقية ، غير ان امي نصرت فكرة اياد وقد ايدتها انا الاخرى . كان يكفي ان يرى المرء حماسة هذا الصبي العزيز واختلاج شفتيه للفكرة التي تخايله حتى يرق ويود لو حققها له .

كان في اختي الجديدة شيء يجتذب القلب وقد احببت ان اتريث في بغداد وأرجيء سفري ولو شهرا لاتعرف اليها وأتزود لفراق طويل ، غير ان موعد سفري كان قد حدد وهكذا وجدتني ذات فجر الوح بيدي للمرة الاخيرة الى ابي وأياد وقد حضرا لتوديعي في المطار . ولم يكن عمر ياسمين اذ ذاك يزيد على اسبوعين .

ماذا يصنع البعد بنا ؟ اننا في البداية نتمسك بكل ما احضرناه معنا من الارض القديمة التي فتحت ذراعيها وأسلمتنا للمسافات . نحن نتعلق بأشياء مثل عدد اشجار الدفلى في حديقة الشارع امام منزلنا ، وطعم الشايالخاص الذي يصنع في بيتنا ولا نرى له مثيلا في الوجود ، ووجه ياسمين الصغيرة التي ملأت القلب اياما ثم خفت صوت بكائها وراء المحيط . اننا نطبق اكفنا على كل هذا ونقسم الا نغفل عنه ولا ندع النسيان يسرقه منا ... ولكن الحياة الجديدة تتناولنا بسرعة وتسلمنا لاصناف لا عهد لنا بها من المشاغل والظروف والوجوه وسرعان ما ننسى حتى اننا ننسى . وفي بداية السنة الثانية نشعر فجأة كم نحن بعيدون عن كل من أحببنا ، وتفاجئنا الحقيقة الكبرى : لقد تغيرنا .

اربع سنوات من هذا ... كيف كان يمكن لي الا اغفل عن ياسمين ؟ وكان اياد يذكرها لي في رسائله بين الاخبار الاخرى التي تهمه : شجرة السرو التي التوى عنقها ،نخلتنا

التي أحرقها البرق ، شجرة التوت التي لم تعط ثمرا هوائيا هذا العام ... وياسمين التي تكبر بسرعة ويزداد ولعها بقطتنا (سيرسي) وهكذا .

وكنت ارسل اليها هدايا من الملابس واللعب بين الحين والحين ، وكنت اضع صورة صغيرة لها على مكتبي ، غير ان هذه الومضات الخاطفة من الصلات لم تصل ما تفصله المسافات بيننا ، فما كنت املك في نفسي اكثر من ارتباط تقليدي بأخت لي لا اعرفها ، ولم استشعر تماما ذلك الحنين الذي تبعثه في النفس الالفة والمجاورة . ولم يكن هذا

يقلقني . الست راجعة الى العراق ؟ ان اسبوعا واحدا الى جوارها سيجعلنا نتبادل المحبة على أتم ما تتبادلها اختان فما الداعي الى القلق والاستعجال ؟

ثم عدت الى بغداد ذات خريف .

وفي غمرة الفرح باللقاء لم اتذكر ياسمين . وحين انصرمت الدقائق الاولى اقبل علي اياد يحملها بين ذراعيه : طفلة سمراء مرهفة التقاطيع ذات جدائل سود تتهدل على كتفيها وقد البسوها « بنطلونا » ايطاليا أزرق يشد حول ساقيها النحيفتين بأشرطة مضفورة . كانت باختصار طفلة عذبة وقد وضعها اياد بين ذراعي وقال في بعض عتاب ولوم: « اراك قد نسيت ياسمين . ألا تسألين عنها قط ؟ »

ياسمين !

منذ تلك اللحظة الاولى باتت اختي هذه شغلي الشاغل . لقد لاح علي وكأن غيابي الطويل في اميركا قد جمع في نفسي كثيرا من المحبة والشوق وسرعان ما تفجرت حين عدت الى منزلنا . اما ياسمين فقد رفضت منذ البداية ان تمنحني صداقتها فما كدت اتناولها من اياد وأقبلها حتى راحت تدفعني بكلتا يديها وهي تصيح بلهجة طفولية :

« اذهبي . . . لا أريدك ! » واضطرت أمي الى ان تأخذها وتحاول اعادة الاطمئنان اليها باخبارها انني اختها الموعودة وداد التي طالما سمعت عنها . وعندما رأت امي خيبتي بسبب هذا الصدود غير المنتظر من أختي قالت لي ملاطفة « انها لا تعرفك بعد . وستألفك تدريجيا » . غير ان الايام بدأت تكذب أمي فان ياسمين لم تغير موقفها مني . . .

اما انا فقد سلكت المسلك الطبيعي في مثل هذه الحالة : أخت صغيرة لطيفة اقابلها اول مرة وأتعلق بها ، فأروح ابذل كل جهد للتعرف اليها والارتباط بها . وهكذا رحت اغمرها باللعب والاشرطة والحلوى وكل ما تحب ، وكانت شؤونها تلقى عناية بالغة مني . غير ان جهودي لم تزدها الا توترا . فكانت تحفظ مسافة دائمة بيني وبينها تنظر الي في حذر وكأنني غريبة ، وبقي قلبها الصغير مغلقا ازاء مفاتيحي كلها لا يختلج بعاطفة واحدة من عواطف الاخوة التي اتفجر انا بها . وكان افراد اسرتنا يتأثرون حين يرون مجهوداتها كلها تفشل في اجتذابها ، ففي ختام كل محاولة كنت اسمع العبارة نفسها من ياسمين ترددها في عناد وتحد : « اذهبي . . . لا اريدك » .

ولم اعدم تفسيرا للموقف . رحت اقول لنفسي ان الحب الاخوي ليس معنى نظريا بالنسبة لطفلة في الرابعة كما هو بالنسبة لنا نحن الكبار وانما لا بد له ان ينبت كما تنبت البذرة . وقد نشأت ياسمين في هذا المنزل طوال اربع سنين والفت افراده حتى القطة (سيرسي) . كانت ترى اوجههم كل صباح وتتلقى حنانهم ورعايتهم فبادلتهم الحب ورأت فيهم مملكتها الصغيرة السعيدة . ثم جاءوا بي فجأة وسألوها ان تدخلني في رعاياها . لماذا ؟ لانني اختها. اهذا منطق مقبول عندها ؟ ان ياسمين لم تضع لي مكانا في مملكتها قط ولم تحسب لمجيئي حسابا . وهكذا وصلت متأخرة فاذا القلب الذي انتظرت منه صفاء الاخوة قد تحول الى حصن كتبت في مدخله كلمة (ممنوع) .

*

ماذا يصنع البعد بنا ؟ في اميركا حسبت انه يقوم بعملية محو بطيء لما حملناه معنا من عالمنا القديم . ولم يتجلى اذ ذاك ان ادرك الجانب الاهم من صنيعه بنا . ان البعد لا ينسينا وحسب وانما يضيف الينا أيضا . وقد كان اول من جعلني افطن الى هذه الحقيقة الهامة هو اختي العنيدة ياسمين . فاذا كانت السنوات الاربع الماضية التي قضيتها في الخارج هي كل رصيدها من العمر فان هذا يفسر معاملتها لي وكأنني غريبة عنها . ولكن . . . ما مدى ما تفصلني هذه السنوات عن امي مثلا ؟ عن اياد ؟

انهم يحسبون اننا نكتسب كثيرا من حياتنا في الخارج، دون ان يتخيلوا الثمن الذي ندفعه . ان حياة البعد المنفصلة هذه ليست كلها مباهج ، وتكاليفها الشعورية في الغالب باهظة . بعضنا يدفعها في الخارج وبعضنا فيما بعد . اننا نعود الى الوطن وقد تغيرنا وتكونت في انفسنا طبقات جديدة اجنبية الطبيعة تترسب في خلاياها وجوه غير مألوفة ، واصداء عبارات من مجالس مجهولة ، ورؤى اماكن بعيدة ودروب تتلوى في مزارع تختلف عن مزارعنا ، وغرف في بنايات لا تشبه بناياتنا . لقد عشنا ماضيا له شوارع اخرى غير شارع الرشيد ، والفنا وجوها لا صلة لها بوجه اياد. وعلينا الان ان ننزع هذا الماضي من حياتنا نزعا قاطعا ، فليس من احد هنا يشاركنا اياه . كل ماض اخر لنا يستطيع ان يحيا في حاضرنا ما عدا ماضينا الاميركي هذا فنحن ملزمون بان نخلعه ونرميه في لحظة واحدة . ان اهلنا واحباءنا ينظرون اليه في ريبة وحذر تماما كما تنظر ياسمين الي . انهم يعتقدون ان علينا الا نتغير ، ويعاملوننا وكاننا لم نتغير . ويكون هذا اول ما يصدمنا ونحن ندخل المنزل ونبحث عن ارتباطاتنا القديمة . ونحاول ان نفعل ما يريدون ، فننزع ما فينا من اجلهم ، ولكننا سرعان ما ندرك ان هذا الماضي ليس ورقة ملصقة على سطح انفسنا بحيث يسهل نزعه . واذا نحن نزعناه ، افلن نكون اشبه بمنزلنا الحلو هذا اذا نحن قررنا في لحظة ان ننزع منه ياسمين ؟ ان ياسمين هي المعادل النظري لهذا التغير في حياتي . اليس عمرها اربع سنين ؟

ثم بدأ احساس اخر افظع ينمو في نفسي دون ان اشخصه او اناقشه . اتراني وحدي التي تغيرت ؟ اما تغير ابواي واياد ايضا ؟ لقد تسلل الزمن بيننا وفصلنا . وياسمين التي لا تريدني في البيت هي عنوان هذا الفاصل فهي تجسد في حياة اهلي كل ما لا اعرفه . وماذا اعرف؟ كانوا يحدثونني في رسائلهم عما يسمونه بالاحداث الرئيسية

وهي عادة اتفه الاشياء . اما الجوهر فماذا اعرف عنه ؟ اربع سنوات من الصمت ثم اعود فاجد ياسمين في الرابعة. ترى لو كان لهذا التغير في اهلي صوت اما كان يصيح بي « اذهبي . . لا اريدك » تماما كما تصيح ياسمين ؟

ولعله قد بدأ يصيح فعلا . . . او هكذا حسبت .

*

مهما يكن فقد تعلقت بياسمين تعلقا يفوق التصور بحيث بات برودها ازائي يعكر صفائي ويشعرني بالغربة في بيتنا . وقد واصلت محاولاتي لتقريب المسافة بيني وبينها، وكنت احيانا حين تفشل اساليبي كلها في اكتساب صداقتها اشعر بالضيق فاقول لها في حنق :

ـ ياسمين . اني لا احبك ، هل تسمعين ؟

وكان يخيل الي ان موجة من الانفعال تسري في صفحة وجهها في هذه الحالات وان عينيها تختلجان لحظة ولكنها سرعان ما تتمالك وترد متحدية :

ـ لماذا لا تعودين الى اميركا اذن ؟ لقد قلت لك انك لست اختي وانني لا احبك .

وقد اخذت هذه المصاولات بيني وبينها تزداد يوما بعد يوم وتدخل احيانا طورا جديا . وكانت امي لا تخفي عجبها من انني لم اتعلم في الخارج ان اكون اقل عاطفية فامتلك القدرة على ادارة المواقف بدلا من الاستسلام لها . وكانت فوق كل شيء ، لا تدري كيف اكون قليلة الصبر الى هذا الحد . وقد قالت لي مرارا ان مسألة حب الطفلة لي لا يمكن ان تعالج بهذه العصبية وانما تتطلب شيئا من الجهد ريثما تألفني الصغيرة وتكف عن الشعور بانني غريبة في البيت . ولكني بدأت اضيق بملاحظات امي واردها الى « التغير » فيها . اتراني حقا غريبة هنا ؟ .

غير انيمع ذلك واصلت محاولاتيالودية دون ان يداخلني اليأس منها . انها اختي وانا احبها ولا بد لها ان تبادلني المحبة يوما . كنت اجيئها بلعبة بعد الظهر ثم اخاصمها على مائدة العشاء ، وكان يؤذيني اشد الايذاء انها تتقبل اللعب وترفض الاقبال علي . وكم مرة احتج ابي على انني اعكر جو المائدة باثارة معارك كلامية مع الطفلة . وكنت احيانا اغيظها بان اسحب صحنها من امامها فتحني رأسها وتسكت رافضة الكلام او التعليق او حتى الاحتجاج . وكان كل هذا يضايق امي التي بدأ صبرها يفرغ ولم تعد تدري كيف تحل هذا الاشكال القائم في الاسرة فلا ياسمين تحبني ولا انا اكف عن تعلقي بها .

والحق ان الصراع بيني وبين الصغيرة كان يشبه الحرب، وكان واضحا لكل فرد في البيت ان ياسمين تجد نوعا من اللذة في عبارتها « اذهبي ، لا اريدك » . واما انا فلم اعد اراها كما ينبغي ان ارى طفلة صغيرة مشاكسة وانما تحولت في نظري الى انسان مدرك يدري بما يصنع . باتت تلوح لي مبهمة، منيعة ، وكان سنواتها الاربع جدران قلعة حصينة تفصل بيني وبينها وتتركني واقفة وراء الاسوار . بات عالمها يكبر ويكبر حتى يلوح لي وكأنه الدنيا . وكان يغيظني ان الاخرين لا ينظرون جديا الى الموضوع كما أنظر . . وقد يبتسمون و « يداهرونني » (١) مع اني متأثرة الى اعماق نفسي .

ولم اكن اعقد معها هدنة قط ، وكثيرا ما كنت امازحها باقتراحات مخيفة كان اقول : « ياسمين ! ما رأيك في ان اعطيك لهذا العامل الطويل واسأله ان يبنيك في الجدار ؟ انك ستلوحين حلوة هناك » او اقترح عليها ان اربطها الى المروحة الكهربائية في سقف غرفتي واتركها تدور ، ولعلها كانت تدرك ان هذا مزاح ، ولذلك كانت ترد ببرود وكان مزاحي لا يستهويها : « امي لا توافق » . وكانت امي تعاتبني على هذا المزاح غير الفطن مع طفلة في الرابعة من العمر . غير اني لم اعد افكر في ان اكون « فطنة » . كان برود ياسمين نحوي يغيظني حتى انسى ابسط القواعد . وهكذا مضت المعاكسات من الجانبين تزداد حتى ضج ابي بالشكوى وبات يقول انه لا يدري حقا أينا هي الطفلة انا ام ياسمين .

*

ومضت اشهر دون ان يتغير الموقف وبقيت مملكة ياسمين مقفلة في وجهي حتى جاء الصيف ووقع حادث مؤثر غريب لا انساه قط .

كانت ياسمين ترفض دخول غرفتي وقد فشلت محاولاتي في هذا الصدد جميعا . وقد حدث بعد ظهر يوم حار ان دخلت غرفة امي فوجدت الطفلة نائمة ، وكان التيار الكهربائي في المنزل قد انقطع لخلل فيه فتوقفت المروحة وعرقت الصغيرة عرقا شديدا لم احتمل ان اتركها تعانيه . وقد خطر لي ان احملها الى غرفتي التيتتصل بجهة من الدورة الكهربائية لم ينقطع التيار فيها . وتذكرت فورا ان ياسمين لا تحب غرفتي فليس من الحق ان استغل نومها لارغمها على هذا وقد اتهمت نفسي بانني استفيد من فرصة انقطاع التيار لاخذها الى غرفتي واسعد برؤيتها هناك ولو نائمة . غير ان وجود حجة ظاهرية تبررها مصلحة الصغيرة نفسها قد اسكتت صوت « ضميري » . ان كل ما اريده هو راحتها . وبعد افليس في امكانها ان تغادر غرفتي عندما تستيقظ ؟ اني لن اكون سجانا .

وهكذا كان ، ووقع الحادث المبهم الذي لم اصل الى تفسير مقنع له حتى اليوم . لقد كان واحدا من تلك الاحداث العابرة التي تلوح تافهة غير انها في الواقع ترتبط بصميم الاشياء في حياتنا وسلوكنا ، كما انها تترك فينا انطباعا عميقا ، وقد تغير مجرى حياتنا .

اذكر ان امي لم تكن في البيت في ذلك المساء فقد صحبت ابي في بعض الشؤون ، واحسبها لو كانت هناك لما وافقت ، حتى من اجل مصلحة ياسمين ، ان آخذها الى غرفتي وهي غافية ما دامت بيننا هذه الحرب . ولكن الصدف التي قررت ان يقع الحادث أبعدت امي عن البيت . لقد ارقدت اختي

(١) «يداهر» باللغة البغدادية يشاكس عامدا في محبة ودونما غرض سيء.

على سريري وجلست ارقبها في غبطة . كان وجهها مكتسيا بتلك الراحة المشرقة التي ترتسم على وجه طفل صحي نائم . وسرعان ما رحت اقرأ وقد اطمأننت الى ان كل شيء على ما يرام . وعندما انصرفت ساعة بدأت استطيل نومها واتخيل انه امتد اكثر من المعتاد ، غير انني ردعت نفسي عن ايقاظها وقررت ان امنحها نصف ساعة اخرى . ولكن نصف ساعة اخرى لم توقظ ياسمين .. لقد استمرت نائمة .

وبدأت أضيق . اي نوم ثقيل ، يا الهي ! ورحت اناديها باسمها وامربيدي على شعرها محاولة ايقاظها ، ولكن بلا جدوى . وعندما لم تتحرك بدأت اندهش . فحملتها عن السرير واجلستها على ركبتي وانا أتوقع ان تفيق فورا وتصيح بصوت مثقل بآثار النعاس : « دعيني ! ــ لا اريدك » ولكن ظني لم يتحقق انما مالت الصغيرة برأسها في ارتخاء تام على كتفي وواصلت النوم . واعتراني قلق غامض عليها فجأة ورحت اشك في طبيعة هذا النوم الغريب ، ومن ثم فقد اعدتها الى السرير وذهبت ابحث عن اياد لآخذ رأيه في الموضوع . وقد وجدته في الحديقة يرش الاشجار . وعندما لخصت له القضية ابتسم ابتسامة ذات معنى وقال دون ان يلتفت كثيرا : « ماذا ؟ ياسمين ايضا ؟ لماذا لا تدعينها تنام قليلا ؟ انها تحتاج الى النوم » وقد غاظني تعليقه غير انني قررت مع نفسي أنه ربما كان مصيبا فقد لعبت الطفلة كثيرا ولعلها تحتاج الى مزيد من النوم .

وعدت الى غرفتي احاول القراءة من جديد على مقربة من الطفلة النائمة . ومضت عشر دقائق اخرى ثم لحظت شيئا اعاد الي القلق . لقد راحت حركة غريبة تختلج على جفنيها المطبقين وكأن البؤبؤين خلفهما يتحركان حركة دائرية وجسست كفها فاذا هي باردة كالثلج . ولم اعد اتردد . ان الصغيرة مريضة ومن الحماقة ان اردع قلقي . ورحت احاول ايقاظها من جديد واستعملت كل اسلوب فلم انجح .

واخيرا حملتها في اضطراب وغادرت غرفتي الى ردهة البيت وهناك لقينا اياد ، وعندما رآها مرتخية على ذراعي لاح على وجهه قلق حاول ان يكتمه فتقدم نحوي بلا تعليق وتناولها بين ذراعيه وجلس على اقرب كرسي وراح يلاطفها محاولا ايقاظها .

ولكن محاولاته لم تأت بنتيجة : لقد همس باسمها ، لقد داعب جدائلها ، لقد هزها من كتفها قليلا ، لقد اجلسها ، ... مددها ... سدى . ان ياسمين نائمة نوما غريبا يشبه الموت وهي ترفض ان تشعر بوجودنا ، وسواء عندها ارقدناها ام اجلسناها . وشعرت بالم عاصف يأخذ بنفسي ، وخنقتني دموع ترفض ان تتحدر ولم اعد احسن التفكير . الم يكن الاجدر بي ان ادير قرص التلفون واستدعي طبيب الاسرة ؟ وقد كاد اياد اكثر جلدا مني فوضعها على ركبتي ونهض يستدعي اقرب طبيب . وفي طريقه الى الباب تطلع الى وجهي وحين رأى شحوبي قال لي في رفق : « لا تخافي اظنها مصابة باغماء . »

لا تخافي ! ايحسبني خائفة ؟ اني اوشك ان اجن . لقد حدث لها هذا لانني اخذتها الى غرفتي ، واذا حدث لها شيء فسأكون انا المسؤولة ، انا التي احبها كل هذا الحب .

كانت الدقائق العشر التالية اهول لحظات حياتي وقد وتر الانفعال الشديد خيالي فراحت صور شتى تتلاحق امام عيني في انتظام ، وبرزت الى سطح ذاكرتي حادثة صغيرة من طفولتي كان النسيان قد غلفها في ثناياه سنين طويلة فلم اتذكرها الا في تلك اللحظة الحرجة . تلك الدمية التي اشتروها لي وانا صغيرة جدا ، وكانت تتحرك بواسطة نابض في داخلها ، وفيما انا العب بها وارقب حركاتها توقف النابض فهمدت حركتها فجأة . لقد احسست برهبة غامضة تجتاح نفسي وكانني قتلت انسانا ، ولم افهم كيف وقفت الدمية فرحت ابكي صارخة في هلع واقبلت امي على صراخي فوجدتني في حال من الرعب يرثى لها . ماذا جاء بهذا الحادث الى ذاكرتي ؟ وتطلعت الى ياسمين الشاحبة شحوب الموتى واحسست بالشعور القديم عينه ، الحياة التي همدت وتوقفت حركتها بين يدي . اترى كابوس طفولتي قد تحقق ؟ انها ليست دمية هذه المرة وانما هي احب الناس واعزهم . وانبجست دموعي وراحت تتحدر .

ولاح لي وجودها على ركبتي مؤلما .. لقد كانت ترفض ان احملها عندما كانت مملوءة بحرارة الحياة فلأهنأ الان بها وهي هامدة زرقاء الشفتين . لقد كنت من الانانية بحيث آليت ان انال محبتها حتى لو كلفني ذلك ان اخونها وهي نائمة فأسرقها سرقة الى غرفتي . الا يجوز انها مرهفة الاحساس بحيث تمرض حين ترغم هكذا ؟ الا يجوز انها تموت بارادة خفية لا تفسرها تحليلاتي التي اظنها مفتاح كل لغز ؟ اتراني حسبت ان النائم لا يشعر بما حوله ؟ او ليس محتملا ان تكون شعرت بانها في غرفتي فتمردت بهذا الشيء الاغماء او الموت او ما لا ادري ؟

وبقيت الوساوس تأكلني ولم يبد على الطفلة اي لون من الوان الحياة . وفي هذه اللحظة سمعت صوت امي فأسرعت نحوها وقد لمع في قلبي امل عظيم . انها امي امها ولا بد من ان تنقذها . اذا كان حبي انا لا يقوى على ايقاظها فلا ريب في ان حب امي اقوى . وما كادت امي ترانا حتى تغير وجهها وادركت باحساسها شيئا خاصا قد وقع ، وما زلت اذكر الرنة الغريبة في صوتها الهادىء وهي تسأل : « مالها ؟ » وجاء جوابي في صوت متوسل لا تفسر عبارتي نبرة البكاء فيه : « انها نائمة » ثم غصصت .

اكان وجود امي هو التأثير الفعلي في ان الصغيرة بدأت تعود الى الحياة ؟ لقد راحت تتنفس تنفسا عميقا اولا ما لبث حتى استحال الى تنهدات طويلة ونشيج محزن وآهات استمرت دقائق . ثم فاجأتنا بان فتحت عينيها الواسعتين فجأة وراحت تحدق فينا وكأنها لا تعرف ايا منا . واخيرا راحت تحدق في الفراغ فوق كتف امي تحديقا ماليا وما لبثت ان صرخت صرخة عالية طويلة ودفعت امي وبدأت تقف وتنظر الى اعلى مواصلة الصراخ . ــ في هذه اللحظة

العصيبة انهار هدوء امي فضمتها وصاحت : « طفلتي تموت اركضي واستدعي الطبيب . » وركضت حافية الى حيث التلفون وعندما بلغته وقفت جامدة لا ادري ما اصنع . كان جسمي يرتعش وذهني فارغا . انها تموت اذن ..

وفي هذه اللحظة دخل اياد يصحبه طبيب من جيراننا في الحي . وافاقت ياسمين تماما بعد نصف ساعة وقد اخبرنا الطبيب انها كانت مصابة بنوبة صرع .

.. ..

واما انا فقد شعرت باعياء شديد وانقباض فانسحبت الى غرفتي واغلقت بابها من الداخل . لم يكن في وسعي ان احلل شعوري غير انني كنت اعاني في داخل نفسي من شيء ما ، شيء لا استطيع تشخيصه ولا اظنني الفته . لقد وضعت رأسي على المنضدة وبكيت دقائق دون ان ادري لماذا تماما . ولم ادر ايضا كيف غفوت وانا في وضعي غير المريح ذاك ، ولكنني حلمت ...

كان المكان كبيرا شاسعا اشبه بمحطة قطار اميركية مما يوجد في المدن الكبيرة . وكانت معي حقائب كثيرة ثقيلة . ثم اقبل انسان لم اميزه في الحلم ووقف يكلمني دقائق . وحين ذهب والتفت لم اجد حقائبي . كان مكانها فارغا حين نظرت ، ولسبب ما اخافني هذا الفراغ ، ولاح معارضا للمكان الذي كانت تملأه حقائبي العديدة . ورحت ابحث في المحطة عن حقائبي ، اصعد سلالم واهبط أخرى ، سلالم تجري في دوائر كابوسية الطبيعة ، وكنت ارى حقائبي من بعيد كل مرة فأثق من انني سأصلها بمجرد ان ادور حول التواءة السلم . ولكن الدرجات كانت تنتهي فجأة بجدار يبزغ من الفراغ وينتصب امامي . او يسلمني السلم الى انحناءة لولبية هابطة تجعل حقائبي ابعد مما ظننت . ثم انتهي الى قاعة انتظار ويقف في طريقي حمال زنجي طيب فيدلني بلطف على حقائبي ولكني حين اذهب اليها عبر السلالم افقدها في اللحظة الاخيرة . ثم راحت الجدران تضيق وتتعاكس والممرات تتعقد وتطول والسلالم تشتبك وانا لا اصل الى اي مكان قط . وكان المكان مملوءا بالناس وكانوا يدلونني مبتسمين على الطريق ويساعدونني فلا يجدي هذا حتى فرغ صبري ورحت اتصبب عرقا ولم اعد استطيع الكلام . ثم دوى شيء هائل وكأن قطارين قد اصطدما . واستفقت .

كان كابوسا ولا شك بسبب التواء عنقي وانا نائمة على المنضدة .

غير ان البكاء والنوم اعادا الي شيئا من الهدوء وصفاء الذهن . وفي الدقائق التالية واجهت نفسي مواجهة حقة وقد بزغ امامي ادراك من ذلك الصنف الذي يغير الحياة احيانا . ان القضية قد اصبحت واضحة . انا مولعة باختي وهي لا تطيقني ، وقد بلغت الامور نهايتها العظمى هذا المساء وبات علي ان انسحب فورا قبل فوات الاوان . لا معاكسات منذ اليوم ولا حلوى ولا دمى ولا محاولات لادخالها غرفتي، الم يثبت لي بعد ان الصرع اهون عليها من صحبتي ؟

وماذا بعد ؟ هل يسرني حقا ان ارغمها ارغاما على ان تحبني ؟ وما قيمة اخوة لا تنبثق انبثاق الازهار حين تمس كؤوسها حرارة الشمس ؟ لقد رأيت ياسمين اول مرة فامتلأت بها نفسي وفاضت وتدفقت فلماذا لم تمتليء نفسها بي قط ؟ لا ريب في ان اخوتي المبسوطة الذراعين كانت تتجه الى ثلج وانا لا ادري . ان ياسمين هذه ، على عذوبتها وجمالها ، مرمر جامد لا تحركه صداقتي ، وسدى أحاول اعتصار قطرة حنان من هذه الصخرة .

أنا عاطفية ؟ جائز . هذا ما تقوله امي على الاقل . ام تراني لا احسن معاملة هذه الطفلة الغريبة الاطوار ؟ لقد استنفدت الوسائل كلها وها انا ادرك انها عقدة مستحيلة ليس في يدي انا حلها ، .. انها حاجز مستعص لا استطيع ان اتخطاه ، اشبه بذلك الجدار الاصم الذي يبزغ من الفراغ من اعماق الحلم

وحين اقتنعت بان فهم ياسمين شيء مستحيل بدأت اشعر بالهدوء . انه ولا ريب شيء مريح ان نعلم ان مفتاح الاشياء المستعصية انما يكمن خارج حدود ارادتنا وجهدنا . واللحظة التي نصل فيها الى هذا الادراك هي اللحظة التي تحررنا من سطوة تلك الاشياء ومن طغيانها وتأثيرها فينا . وهكذا بدأت احس بانني استقل عن ياسمين وخيل الي ان في امكاني ان افترض انها غير موجودة في المنزل وكأنها لم تولد قط .

وما كدت اصل الى هذه النقطة حتى شعرت بالسكينة تهبط وتبسط جناحها على روحي . ان في وسعي الان ان ابتسم . اني حرة .

★

وهكذا بدأت في حياتي المنزلية فترة جديدة فلم اعد اقترب من ياسمين او اكلمها لغير ضرورة محتومة ، وكان هذا صعبا في الايام الاولى فقد الفت ان انشغل بها كثيرا بحيث عز علي ان ابعدها عن تفكيري فجأة . غير اني واصلت هذا الفطام النفسي الصارم ورفضت ان اتساهل مع نفسي ، وما لبث الالم حتى بدأ يخف ويسير نحو التلاشي . واما ياسمين فلم يبد عليها ان اي شيء قد تغير في دنياها ، على العكس لقد باتت اوفر صحة ومرحا ولاح عليها انها مرتاحة لا ينقصها شيء . ومضى اسبوعان ...

وقد حدث في هذه الفترة ان صبية عزيزة من اقاربنا قد ابتلعت ، خلال نوبة ضحك ، دبوسا كانت تلعب به في فمها وما لبث الفحص الشعاعي حتى كشف عن نتيجة غريبة واذا الدبوس قد استقر في رئتها اليسرى وبدأ التنفس يصبح مؤلما . واستدعى الامر عملية دقيقة تجري في لندن فورا . ولم يكن اهل الفتاة يحسنون الانكليزية فوقعوا في اشكال وقصدوني يرجون في الحاح ان اصحبهم الى انكلترا لاجراء العملية . وجمعت حقيبة صغيرة على عجل ووجدتني بعد يومين في مطار بغداد المدني بصحبة الفتاة وامها .

وحين ازف الوداع ووصلت الى ياسمين ترددت : هل اقبلها كما اقبل الاخرين ؟

وتذكرت حادث الصرع فردعت نفسي واكتفيت بان اسلم عليها بعبارة صغيرة ثم استدير متأثرة . انها اختي على كل حال ومن السخف ان اعاملها هكذا في لحظة وداع . ومن يدري ؟ لعلنا لن نلتقي ثانية قط ؟ ولم ترد ياسمين على تحيتي وانما اخفت وجهها الصغير في كتف امي ولم ترفعه حتى غابت عن بصري .

لم تطل اقامتي في لندن اكثر من شهرين فقد نجحت العملية التي اجريت فور وصولنا ، بعد اجراء الفحوص الاولية ، وبتنا نرقب المريضة تشفى يوما بعد يوم ، وهو امر ترك لنا مجالا للتفكير في الشؤون الاخرى الاقل اهمية. وكان اياد يكتب الي مرتين كل اسبوع وقد لفتت اخبار ياسمين نظري . كان يخبرني انها باتت قليلة النشاط لا تتحرك كثيرا ولا تقبل على الاكل بشهية كما كانت . وسرعان ما ظهرت عليها اعراض الحصبة، وكانت اصابتها شديدة، وحين شفيت اصبحت كثيرة البكاء شديدة الالحاح على الاشياء الصغيرة حتى عجزت امي عن اعادة الاشواق القديمة اليها. وكانت هذه الانباء تؤلمني وتقلقني فأود لو كنت في بغداد لاساعد بشيء ما على ادخال الفرح على نفسها . وقد ادركت ادراكا عارضا ان صوتها وهي تردد عبارتها الثابتة « اذهبي ... لا اريدك ! » كان الطف من هذا الصمت الموحش في شرفة المستشفى الوطني بلندن . ولم يخطر لي قط ان الطفلة مستوحشة لغيابي عن المنزل وان وحشتها تبلغ هذا الحد ، فقد رايت من صدودها ونفورها ما جعلني لا احلم قط بان تودني يوما . لقد بات الوصول الى القمر في نظري اقرب منالا من ان نكون انا وهي أختين .

وفي ذات صباح تلقيت رسالة كبيرة من امي وجدت فيها تفصيلا لانباء هزتني ولاحت لي غير معقولة . لقد بدأت ياسمين تسأل عني وتتخذ غيابي ذريعة لمواصلة البكاء والالحاح على طلب الاشياء الممنوعة عنها . ثم انفجرت ذات صباح وقالت بلهجة عصبية انها لا تحب احدا في البيت بمقدار ما تحبني انا ، من امي ؟ من ابي ؟ من اياد ؟ من (سيرسي) ؟ وفي الايام التالية باتت تسأل بلا انقطاع عن موعد عودتي الى المنزل . ثم سألت في تفجر طفولي رائع ان يكتبوا الي ويخبروني بانها تحبني اشد الحب وتريد ان اعود الى البيت ...

اي وقع قد كان لهذه الرسالة في نفسي : لقد وددت لو طوي الاسبوعان المتبقيان من اقامتي في لندن لاعود وارى بنفسي معنى ان نكون انا وياسمين على صفاء . لقد عشت معها في صراع مستمر تسعة اشهر من اجل ان تحس بانني اختها وهاهي تتفجر اخيرا هذا التفجر الرائع .

*

في المطار المدني يوم عودتي ، كان وجه ياسمين اول وجه لمحته وراء السياج بين المستقبلين . وتقدمت منها وتهيبت ان اندفع واحملها . وعندما ناديتها باسمها اخفت وجهها في كتف امي التي كانت تحملها ـ تماما كما فعلت يوم سفري ـ وقال لها اياد في انفعال : « ياسمين ! هاهي وداد قد عادت كما اردت .. سلمي عليها . » ولم يجد هذا معها، ولم ترفع راسها . ووجفت نفسي. انها ما زالت تنفر مني ولا بد ان يكونوا خدعوني . ولكن لا . لقد عيل صبر اياد فتناولها بقوة من امي واسلمني اياها . ولم تمانع ، ولكنها اخفت وجهها في كتفي وابت ان ترفعه او ان تقول لي اي شيء . على انني لمحت طرف ابتسامة على صفحة وجهها . وانتبهت فجأة الى انها ، لاول مرة منذ عرفتها ، لم تصح « اذهبي لا اريدك » . وبدأت اهدأ واطمئن . الم اعرف بعد ان اصغر الاشياء وابسطها تعني بالنسبة لهذه الصغيرة القوية الشخصية اكبر المعاني ؟

لقد حملتها وركضت بها في المطار نحو الباب، نحو البيت وقد نسيت حقائبي كليا . ولم اخجل من سخف منظري وانا احمل هذه الطفلة واركض ، وفي المكان كثير ممن يعرفونني .

بغداد — نازك الملائكة

في المكتبات

قرارة الموجة

للشاعرة العربية المبدعة

نازك الملائكة

منشورات
دار الآداب

بيروت ص.ب. ٤١٢٣